

قراءة في كتاب "وحشون الكبير الشرير"

سامح عبوشي

الكتاب قصة مصورة للأطفال، تأليف إنجريد شابير ورسومات راؤول جوريدي، ترجم الكتاب عن الفرنسية أنطوان طعمة. الكتاب من منشورات دار سمير للنشر- لبنان.

يروى الكتاب المكون من 420 كلمة، والذي يُقرأ للأطفال من عمر 4-6 سنوات، يروي حكاية وحشون الكبير الشرير الذي يشبه الذئب ويعيش حياة وحده هائثة في الغابة، الى أن يلتقي يوماً بفتاة صغيرة شجاعة وعنيدة، تشي الرسومات بأنها "ليلي الحمراء" المعاصرة، تعرض عليه صداقتها، وتهديه كتاباً يحدث انقلاباً في حياته.

نقف مع ليلي الحمراء، التي تحمل كتاباً بدل سلة الخبز، ونمعن النظر في غلاف كتابنا، فتغوص أعيننا في فروة وحش أسود يقف أمامنا كالسد، كالجدار المنيع. يزيد اللون الأسود المتمد على كامل مساحة الغلاف من الغموض والاحساس بالرهبة. ثم ننتقل الى الغلاف الداخلي الذي يعيدنا الى فروة الوحش التي تغطي مساحة الصفحتين، مصبوغة بلون الدم تنذر بالخطر والرعب ولكن ما أن نقلب الصفحة، نجد ليلي الحمراء الصغيرة تجلس في أسفل الصفحة البيضاء التي تحمل عنوان الكتاب، تقرأ كتابها بكل هدوء واطمئنان. هذا التضاد يُثير في أذهاننا التساؤل والفضول، ويدعونا لقلب الصفحات طلباً لمعرفة المزيد.

تدعونا الكاتبة من خلال صوت الراوي للتعرف على الشخصية الرئيسية (وحشون الكبير الشرير) الذي يشبه الذئب، ويدعونا الرسام الى الغابة التي يعيش فيها هذا الوحش الغامض، ويسمح لنا برؤية ذيله وآثار أرجله إمعاناً في زيادة الغموض والتوتر ليؤكد ما يقوله الراوي: (انه يرعب الناس، فمجرد ذكر اسمه يكفي لترتجف خوفاً أقسى القلوب) مما يثير رغبة القارئ لمعرفة المزيد. فنقلب الصفحة ليفاجئنا وحش أسود، يحملق فينا، ونصف جسده العلوي يملأ فراغ الصفحة البيضاء، لكن الراوي يطمئننا بأن هذا الوحش (..لم يأكل يوماً، واحداً منهم) ويكمل متحياً للأطفال (..ولم يعضض حتى بطة ساق واحدة)، مما يدغدغ خيال الطفل المحب للمرح، ويريح توتر القارئ، ويجعل الطفل يتساءل عن سبب اختلاق بعض الناس لأساطير، يغذونها بالخوف والغموض.

هنا نتقلنا الكاتبة الى عالم وحشون لتعرفنا على شخصيته، فننتقل مع الرسام الى صورة الوحش الأسود جالساً بين الأعشاب وبين أصابعه زهرة تذكرنا بتصرفات الأطفال الذين يعشقون الطبيعة،

ويتجنبون عالم الكبار بصياحهم، وغضبهم، ووسائل عقابهم، فيتعاطف القارئ والطفل مع وحشون الذي (..يناسبه جداً أن يتجنب الناس). تواصل الكاتبة والرسام تعريفنا بعالم هذا الوحشون، فنجده يقضي أوقاته في الغابة وحيداً يستمتع بأزهار البرية، ويغتسل بحرية في مياه النهر، ويستأنس بالفراشات الودودة الملونة، ويتلهى باصطيادها. صورة رومانسية بامتياز للحرية التي يتوق اليها الأطفال دون قيود وضوابط يفرضها عالم الكبار بالطفس والتعنيف.

(وذات يوم)... هنا تنتقل الكاتبة الحدث الى مفاجأة تروق للطفل (..صوت ناعم أيقظه فجأة من أحلامه)، صوت فتاة صغيرة، تم التأكيد عليها ببراعة في الرسومات بإظهار التضاد في الحجم واللون للشخصيتين على فراغ الصفحة البيضاء، حيث تُعرِّفنا الكاتبة بصوت الراوي على الشخصية الثانية في الحكاية (فتاة صغيرة، هزيلة الجسم، بلباس أحمر يلف جسمها كله)، والأهم من ذلك أنه (..لم تكن أي بادرة خوف تلوح في عينيها السوداوين)... فماذا سيكون رد فعل وحشون أمام هذا الإختراق لحياته وخصوصيته؟ فنسمع الراوي يقول (ويل هذه).. مما ينذر بتصاعد الحدث.

يسأل وحشون الفتاة بتردد عن تكون، وحين لا تكثرث لسؤاله، يختلق كما الكبار، أسطورةً لاحتكار سلطته على المكان. ودون تردد يؤكد للفتاة (..هذا المكان هو بيتي). وكما الأطفال، تتحدى الفتاة سلطته بشجاعة وبراعة (..لا وجود لعلامة تدل على ذلك) مما يدل على كذب الأسطورة. صار على وحشون أن يدافع عن أسطوره التي اختلقها أمام هذا العناد (مش مهم... أريد أن ترحلي) نقول بالعامية "خاوة"، فأنا القوة في هذا المكان وبالتالي أنا صاحب القرار.

ولكن الفتاة لا تقتنع بهذا الجواب، وكما يسأل الأطفال عن السبب لفهم علاقة الأمور ببعضها متسلحين بالبراءة وحب المعرفة، تسأل (ليش؟ هل أنت شرير؟). إذن الفتاة الصغيرة الهزيلة لا يهمها مظهر الوحش الضخم ولا لونه الأسود، ما يهمها هو قلب هذا الوحش.

يحاول وحشون تمثيل دور الشرير حتى يربعها كما أربع الآخرين، ف (أخذ نفساً عميقاً، وفتح شذقيه، وأطلق عواءً مرعباً). الأمر الذي لم تهتز له الفتاة أبداً.

يتصاعد الحدث ويصبح مشوقاً إذ يرفع وحشون لهجة التهديد والتخويف، (إذا لم ترحلي سأأكلك بلحمك وعظمك) والصورة ملء الصفحة لفكي الذئب المليئة بالأسنان المدببة. هذا التهديد الكلامي قد يؤثر في شخصية مسكونة بالخوف والهزيمة، ولكن الفتاة الصغيرة تقابله باللامبالاة.

يرفع وحشون نبرة المواجهة ويستعرض أسلحته المادية، فيشير الى أنيابه المسننه (..أنظري) ولكن الفتاة الصغيرة لا تنتظر، بل تتلهى بقطف الأزهار البرية وتصفه بأنه غير لطيف. وهنا يغير وحشون من تكتيكاته فيتقمص دور المنتصر ويطلب منها الانسحاب. تنتظر الفتاة الصغيرة في عينيه نظرة الند للند، وهو يقف كالمارد الأسود أمامها وتقول له الجملة التي تلخص هدف القصة (انت الخاسر، كنت أريد أن أكون مجرد صديقة) ثم تبعد تاركَةً عند قدميه (..كتاباً، غلافه قديمٌ متآكل)، فالأطفال لا يابهون بمظهر الكتاب، إنما فيما يحتوي من قصص.

هذه الهدية التي هي بادرة إنسانية تحمل معاني المحبة والتعاطف والحنو أصابت وحشون بالارتباك، (هو لم يتلق في حياته كلها أي هدية) إلا أنه التقط الكتاب وتصفح، تصاعداً يصل بالقارئ الى قمة الحدث، لحظة الكشف، لحظة حدوث انقلاب في تفكير الشخصية، إذ (... يكتشف أن الصداقة يمكن أن تكون ممتعة وثمينة إلى هذا الحد) مما يدعوه لمراجعة مواقفه وتصرفاته تجاه الفتاة (... وأحس أنه كان أحمق) وشعر بالندم والفقدان (... فالفتاة الصغيرة صارت الآن بعيدة).

هنا يتدحرج الحدث نحو النهاية، وبوفاء، تذكرنا الكاتبة أن (... هذه الفتاة عنيدة، وعنيدة جداً) إذ تعود في اليوم التالي لتفاجيء وحشون بالسؤال (...أما زلت غير راغب في أن تكون صديقاً لي؟) مما يربكه، فالجواب ليس جاهزاً، رغم التحول في التفكير، فالصفات والطباع لا تتحول بهذه السرعة، رغم التحول الداخلي (فوحشون الكبير الشرير بدا على بعد ألف ميل) ورغم اعترافه لنفسه بأنه (... مجرد وحشون وحيد في هذا العالم)، لهذا وذلك، وعندما تعرض الفتاة الصغيرة أن تقرأ له في الكتاب يكون هناك قبول ضمنى داخلي ولكن رده الظاهري يأتي متماشياً مع صفاته التي عرفناها، فهو السلطة وهو الذي يقرر (...علي أن أخذ وقتاً لقيولتي)، الأمر الذي لا يزعج الفتاة التي توافق على الفور (يا لها من صدفة جيدة، أنا أيضاً، أشعر بالنعاس). تحولاً في تصرفات الشخصية العنيدة، التي تتنازل في سبيل الصداقة، وهي لحظة دافئة يعكسها الرسام ببراعة على مساحة صفحتين كاملتين من الكتاب. وعلى الصفحة الأخيرة يفتح الرسام في فروة وحشون السوداء نافذة بيضاء، على شكل قلب، تعكس الابتسامة التي أشرقت في عمق أعماق وحشون، لكن الكاتبة تخبرنا أنه من غير الوارد عند وحشون أن يظهر للفتاة ما بداخله، فهو ما زال، كما الكبار، مسكوناً بالكبرياء والغرور.

إن هذه القصة المصورة عمل أدبي بامتياز، يمكن فهمه على عدة مستويات بحسب عمر القارئ. نجحت الكاتبة في رسم شخصيات مستديرة، تتفاعل وتتغير مع الحدث المتصاعد الى لحظة الكشف، ثم النزول الى النهاية السعيدة التي يتحقق فيها هدف القصة من موضوعها المعاصر. "وحشنة" الآخر بسبب الجهل والخوف، وإمكانية الصداقة مع الآخر المختلف، ودور القصص والحكايات في فتح نوافذ في جدران العزلة والوحدة، وأهميتها لتطور شخصية الطفل وفهمه للعالم الذي يحيط به. وينجح النص في رفع وتيرة التشويق كما تنجح الرسومات المكملة ببساطتها في إثارة الغموض والتوتر باستعمالها الحد الأدنى من الألوان وترك الفراغ الأبيض، في شد القارئ ليقرب الصفحات راغباً في المزيد.

لو كانت العربية هي لغة الكاتبة، لجاء أسلوب القصة أكثر سلاسة، أما لغة الترجمة، فجاءت قريبة من فهم الأطفال في هذا العمر، مع وجود عدد من الكلمات الجديدة التي سيسأل الطفل أو الطفلة عن معناها، ومن ثم تُضيفها الى مفرداتها.

لا تنتهي القصة كما انتهت قصة "ليلي والذئب" أو كما تنتهي الحكايات الشعبية، بل تنتهي نهايةً فيها من الغموض المحبب ما يتناسب وذكاء أطفال عصر الفضائيات والإنترنت.